الفصل السادس

العودة إلى ثغور تِرَاقْيَا

مواجع أَدِرْنَه مرة أخرى..

أما أنا يا سادتي فلقد تعبت!.. وأنا رجل سقيم!

ولقد طال بي السير بمسالك فتح الله بحثا عن لحظة كشف، أو ومضة برق، يبوح فيها الفتى بوصفة إكسيره الخفية؛ عسى أن أفوز بتلقي سره المكنون، أو لعلي أعرف كيف تلقى مفاتحه القديمة.. ولقد حدثني شجني أن تحت جامع قرطبة صيدلية مدفونة في صندوق.. وأن وصفة دوائي منها مدونة في قرطاس قديم، لم يزل مكنوزاً تحت سارية من سواري المسجد الأقصى..

وحدثني من أثق به أن خارطة الكشف عن الكنزين، لم تزل محفوظة في مكان ما من خزانات الباب العالي في إسطنبول!

قلت: هذا إذن كنز ثالث... من أخطأه جهل الطريق إلى الأقصى، وأضاع معبر طارق بن زياد إلى الأندلس!

قال لي: وإن فتح الله ليعرف مكان الخارطة يقينا، ويحتفظ بمفاتيح الأبواب القديمة! لكن لا أحد يدري متى يمد يده إلى محفظته الصغيرة، فيكشف للعالم سر الوصول!

ولقد سعيت على أثره ركضاً، عسى أن أجد على بصمات أقدامه رسم إشارة، أو بعض أمارة.. ولقد قضيتُ زمناً ليس باليسير بين سِفَارٍ وسِفَارٍ، حتى تورمت أحزاني، وكَلّ حصاني... ولكن دون جدوى... لكنني لم أفقد الأمل..

ومن ذا قدير على الركض خلف براق النور الساري؟

فأن تدرك حصان فتح الله معناه أنك قد خرقت عادة الفلك الأرضي، ووضعت حافرك على مدار الروح! ودون ذلك يا صاح ما دونه من تحطيم خابية الطين بذاتك، وإهراق مائها سقياً لبذور النور!

شعرت بحاجة شديدة إلى الراحة.. كانت علتي قد اشتدت عليَّ، وعجزتْ بصيرتي عن مشاهدة باب الخروج.. فقررت الرجوع إلى موطني، والتأمل في مسلكي إلى حين.

* * *

ما أن حطت بي الرحال بمدينة مكناس، وتخلصت من وعثاء السفر حتى جعلت أتردد على منازل "آخر الفرسان"، أعيد فتح معارجه.. ومن يدري؟ فلعلي أجد بين ثنايا مساربه مسلكاً إلى الزمان الجديد، أو لعلي أجد خارطة الطريق إلى فلك فتح الله، وأعرف أَنَّى أجد مُرْسَاه!

حتى وقفت على فصل من فصول "آخر الفرسان" ما قُدِّرَ لي أن أكتبه، ما عدا ومضة إشارة! فشاهدت محمدا الفاتح، يقف إلى جانب طارق بن زياد، وبديع الزمان النورسي، ومحمد فتح الله.. كلهم جميعا، وآخرين معهم، لم أتبين ساعتها ملامحهم، رأيتهم جميعا يطلّون على الأرض من فلك واحد، فعلمت أنهم جميعا شخص واحد!

وهنا انتفض بي الشوق إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط، واستبشرت خيراً؛ فلعلي أتلقى من هناك تتمة روايتي.. ولم لا؟ فإنما هو بحر واحد، يمتد من تحت أقدام أبي أيوب الأنصاري بمضيق البوسفور إلى مضيق جبل طارق!

ولم أدر كيف وجدتني بعد ساعات أركض بحصاني ما بين طنجة وحدود سبتة السليبة! وجعلت أنظر في أفق البحر إلى أندلس الأحزان!.. آه..!

وامتد صدى الآه بكبدي إلى أن تكسر على صخور الضفة الأخرى..! وصرت أنظر: ذاك جبل طارق.. وتلك هي غرناطة الأسيرة، ومن خلفهما ترقد مقابر المسلمين، وتنتصب للفاتحين أشجار لا يأتي عليها الفناء أبداً! غابة وَرْدٍ بَرّيٍّ، لم يزل أريجها يملأ رئة الزمان!

وههنا تذكرتُ مدينة أَدِرْنَه، وجامع السليمية، ومسجد الشرفات الثلاث.. وتَقارَب الزمانُ ما بين قرطبة وأَدِرْنَه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، وتجلت لي المواجع والفواجع.. وشاهدت تردد الريح بالنشيج ما بين البوغازين! ووقع بقلبي أنني سوف ألقاه هناك، فإن لم أجده وجدتُ له بها أثراً، أو علامة تدل على وجهة اللحاق بخيول الرفاق..!

ثم نادتني أشواق الرحيل فجمعت حقيبتي واتبعت سبباً!

* * *

ما بين إسطنبول وأَدِرْنَه كما بين قرطبة وغرناطة من أحزان.. كانت السيارة تطوي بنا التاريخ الذي كان.. وكانت تكبيرات الفاتحين وحمحمة الخيل تملأ أذني على امتداد القطاع الأوروبي من تركيا.. كان السائق يشغّل شريطا من مواعظ فتح الله، وكانت عبارات الواعظ تختنق من حين لآخر بالبكاء! وعلى زجاج السيارة الأمامي كانت قطرات الأمطار تسيل بانسياب كئيب.. وكان السائق يصر على عدم تشغيل ماسح الزجاج إلا بعد تعذر الرؤية تماماً!

كان مرافقي يحدثني عن مسجد السَّلِيمِيَّة ومسجد الشُّرُفات الثلاث..

وعن مدينة أَدِرْنَه مولد محمد الفاتح.. كان يروي قصة المجد الذي كان، وكأنما هو يعيشه الآن!.. فأزداد شوقا إلى رؤية قاعدة الفتح العظيم. بيد أن الشوق كان أشد لرؤية آثار فتح الله هناك.. كانت السيارة تجري، ومن غير شعور مني كنت أضغط بقدمي على بساطها رغبة في زيادة سرعتها، فلعلي أشاهد في نافذة فتح الله معالم الطريق..

وما هي إلا لحظات حتى رأيت المآذن الأربع لمسجد السَّلِيمِيَّة تنتصب في الفضاء.. كانت خواصرها الرشيقة تتبرعم بجمال خارق!.. وكانت أعناقها الجميلة تطول بشكل لا يتوقف!.. عجباً! كأنما هي أشجار تنمو بين الفينة والأخرى.. أما القبة العظمى فقد كانت تبدو من بعيد وكأنها صخرة معراج نحو السماء.. ولقد شاهدت أنسام الروح تتبخر وروداً ما بين المآذن والقباب، طيبا نديا يرسم معالم الطريق إلى أبواب السماء!

ولقد دخلت مسجد السَّلِيمِيَّة يا سادتي، فانهارت الدهور على الصخور؛ فخررت على الأرض صَعِقاً! وسمعتُ فتحَ الله يبكي.. آه! فانجرفتُ معه في نشيج عميق! ومن ذا يطيق مشاهدة فضاء قبة السَّلِيمِيَّة، ونداءاتها الشجية ولا تنهدّ أركانُه رَهَباً؟ ولا أعظم من قبة السَّلِيمِيَّة في العالم كله! ولو رفع المعماريون ووسعوا ما شاؤوا من الصوامع والقباب! فهذه قبّةُ عزٍّ وسلطان لم تزل تجلل رؤوس الفاتحين إلى يوم القيامة!

أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ إِذَا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ!

ولم تزل السليمية تنجد النور الهارب من زحف العواصف الهوج بأندلس الأحزان، وتحتضن بأضلاعها حنين المهاجرين، وأشواق الحالمين بالعودة.. ههنا قرطبة لم تزل تحتفظ برخامها العتيق! ودفنتْ غرناطة أسرارها تحت هذه الأركان! كل النقوش ههنا تتكلم! كل الزخارف،

كل الخطوط، كل الألوان، كل الانحناءات الصغيرة، والضفائر العذراء المتدلية من تحت حُجُبِ حروف الشجا، كلها منحنية بين يدي ربها راكعة أو ساجدة.. وإني لأسمع نشيجها الخفي يتدفق كبكاء العصافير الصغيرة: رب اغفر لي..! رب اغفر لي..! رب اغفر لي..! كل الزخارف ههنا وكل الأنوار تصلي.. كان موج الزمان المتدفق على صدري أقوى من طاقة أضلاعي الضعيفة، فبكيت!

ومن على هضبة أَدِرْنَه الخضراء ناديتُ الشعاعَ الغارب في ضباب أوروبا: سلامٌ عليكِ يا أندلس الأشجان!

* * *

حدثني ترجمان الأحزان قال:

ولذلك عندما أنهى فتح الله واجب الخدمة العسكرية، تجلت له أشواق أَدِرْنَه من جديد.. كانت هضابها الرابضة على حدود دول البلقان تجذبه بقوة، وكانت مساجدها المشرئبة بمآذنها التاريخية إلى الأفق الأروبي العميق تهز وجدانه هَزًّا!.. كان مسجد الشرفات الثلاث أعز المساجد إلى قلبه.. فقد كانت نافذته التي احتضنته لمدة نحو ثلاث سنوات، تَشُوقُهُ بقوة! ومن ثم استيقظ بوجدانه حنين شديد إليها، وإلى فضاء مسجدها التاريخي المجيد، حيث لبث إماما بمحرابه زمناً.. لقد كان هذا المسجد الذي بناه المعماري "خير الدين" أحب إليه من مسجد السليمانية القريب منه، الذي تُعَدُّ قُبَّتُهُ العظيمة، وصوامعه الأربع، وهندسته المعمارية الجميلة؛ مفخرة الأتراك، وأعظم آثار العهد العثماني الزاهر! وليس يدري لماذا كان يجد شبها بين هذا المسجد وبين عملاق المحن في هذا الزمان الأستاذ سعيد النورسي بديع الزمان! ثم كان يشاهد أن هذا المسجد يتوحد مع السطان

الرباني العظيم "مراد الثاني"، والد السلطان المجاهد محمد الفاتح، وكأن ذلك المسجد وهذا السلطان، يكمل بعضهما بعضا.

كل هذا وذاك جعل فتح الله يقرر العودة إلى أَدِرْنَه واختيارها هي بالذات لتكون أرض مهجره مرة أخرى، وليكون مسجد الشرفات الثلاث نقطة الجاذبية لاستئناف معراجه الروحي، وجهاده التعليمي والدعوي.

كان ذلك في اليوم الرابع من شهر يوليو سنة ١٩٦٤م.. عندما وصل الأستاذ محمد فتح الله أرض مهجره الأول من جديد، قصد مسجده الحبيب مباشرة آملا في أن يرجع إلى إمامته وخطابته.. لكنه صادف إماما جديداً قد استولى على منصبه فيه.. وبعد محاولات إشارية متلطفة معه، ومع الإدارة الدينية، فشل فتح الله في استرداد مسجده ووظيفته. فما كان منه إلا أن ضمد جرحه واستسلم لقدر الله.. ثم تذكر أنه ما يزال يحتفظ بشهادة نجاح في أهلية الوعظ والإرشاد، من إدارة الشؤون الدينية، فأبداها للمسؤولين بأَدِرْنَه؛ فقرروا أن يوظفوه بمقتضاها معلماً للقرآن الكريم بأحد المدارس الدينية. فكانت تلك نافذته الوحيدة للولوج إلى ميدان الدعوة، وممارسة الوعظ والإرشاد.

لكن الفتى فاجأه أن الناس صاروا يعرفونه أكثر، بل إن شخصيته قد اتسعت شهرتها عن طريق الجرائد والصحف؛ بسبب أخبار الحوادث والمحاكمات التي تعرض لها أثناء خدمته العسكرية. زاد الطين بلة أن إحدى الجرائد العلمانية، بمجرد أن علمت بقدومه إلى أَدِرْنَه واستلامه وظيفة التدريس للقرآن نشرت ضده خبراً استعدائيا، فيه خلاصة محاكماته العسكرية السابقة، ومتسائلة في الوقت نفسه بعنوان مثير: "رجل كهذا، كيف يمكن استمراره في وظيفة رسمية؟" ومن ثم صار دخوله إلى أَدِرْنَه

حدثا إعلاميا في حد ذاته، ومشكلة من المشكلات السياسية. فما هو إلا يوم أو يومان حتى بدأ بعض الأشباح من رجال الأمن يلاحقونه في كل مكان. ما خطا خطوة نحو مسجد درس، أومنزل صديق، أو نَادي أحبة، إلا كانوا وراءه كالظلال يترصدونه ويراقبونه!

ومن ناحية أخرى صار بعض مسؤولي إدارة "تعليم القرآن" التي كان تابعا لها في وظيفته يتضايقون به، ويسعون إلى تهميشه وجعله غير نافذ في المؤسسة، بل صار بعضهم يتآمر عليه لسلبه جميع صلاحياته. فالإدارة لم تكن تستسيغ أن يكون رَجُلٌ داعيةٌ فعَّال مثل فتح الله تابعا لمؤسستها التعليمية، خاصة وأن أغلب رجالها ينتمون إلى طريقة دينية معينة، فكانوا يخشون منافسة هذا الداعية الشاب، وتأثيره غير المرغوب فيه على جموع الطلاب والأتباع. وقد صرّح له بعضهم بذلك تصريحا، ولَمَّحَ له آخرون تلميحاً. هذا علاوة على أنه بالنسبة للسلطة الأمنية شخص مشبوه مُطَارَدٌ أبداً؛ إلا أن ظلم ذوي القربى كان أشد على نفسه الحزينة وأنكى!

لكن الله كان أقوى من كيدهم جميعا وأكبر! فقد مرض إمامُ مسجد "دار الحديث" بأَدِرْنَه، والأئمة في ذلك الزمان قليل، فاضطرت الإدارة إلى توظيف الفتى مكانَه إماما للمسجد لفترة مؤقتة.

ودخل الفتى مسجده الجديد مسروراً، فقد حصل بفضل الله على مقر جديد لدعوته، فاتخذ غرفة الإمام مسكنا له من ناحية، وجعلها مدرسة لتعليم الطلاب من ناحية أخرى. وما كان شيء أمتع له ولا أحب من التدريس، فانطلق في عمله بنشاط وقوة، مع حذر دائم من عيون المترصدين والمترقبين. وقضى في هذا المسلك أياما كانت من أمتع لحظاته في هجرته الثانية لأَدِرْنَه، ومن أكثرها أسراراً وبركةً.

في تلك الفترة تم تعيين الأستاذ "سُعَاد يِلْدِرِمْ" -وهو صديق للأستاذ فتح الله- مفتيا عاما على محافظة أَدِرْنَه. والنظام الإداري يومئذ قائم على أن مفتي المحافظة هو المسؤول على جميع الموظفين في إدارة الشؤون الدينية والتابعين لها، كالأئمة، والخطباء، ومدرِّسي القرآن الكريم، وغيرهم. فاستأجر له الإداريون منزلا خاصا. وكان فتح الله ساعتها قد غادر غرفة الإمامة بمسجد دار الحديث، واستأجر لنفسه منزلا يسكن فيه. لكنه كان منزلا خَرِباً سيئاً للغاية!

في أحد الأيام زار الإمام فتح الله صديقه المفتي "سعاد يلدرم" ببيته في وقت مبكِّر بُعَيْدَ الفجر حتى لا يراه أحد. ففاجأه أن بيت المفتي لا يقل سوءاً عن بيته الخرب. ولذلك ما أن جلس إليه حتى شكا المفتي حاله قائلاً: "إن هذا البيت تسكنه البراغيث بكثرة.. إنني لا أستطيع النوم بسبب تواتر اللسع والحك!" فقال له صديقه الإمام: "وإن حالي لكذلك، فإذا رغبتم نستأجر معاً منزلاً واحداً، تكون فيه غرفتان، كل منا يسكن غرفة؟" فما كان من المفتي إلا أن وافق فوراً!

بعد بحث مُضْنٍ، وجد الرجلان منزلا للكراء.. كان عبارة عن مسكن سفلي يتكون من غرفتين، دون مرافق أخرى، وفوقه آخر علوي يسكنه رب البيت وأسرته، وكان بناته ونساؤه على حال فظيع من التبرج والتبذل، كعادة أهل أَدِرْنَه في ذلك الزمان. وكان للبيت كله مرحاض واحد، مبني في إحدى زوايا الحديقة الصغيرة، يشترك في استعماله الجميع. وقد كان في ذلك من الضيق والحرج على الرجلين الصالحين ما فيه. أما المطبخ فلم يكن له مكان في مسكنهما؛ ولذلك اتخذا فراغاً صغيراً تحت الدرج مكانا لطبخ طعامهما. ولكن على الأقل تخلص الرجلان من لسع البرغيث

وهرشها. ثم كانت تلك فرصتهما الغالية لمدارسة رسائل النور. وهناك كان كل منهما يستنسخ ما يشاء منها لجعله مادة وعظه بالمسجد. كان فتح الله يجعل ورقةَ دَرْسِهِ وسط كتاب "التجريد الصريح في اختصار الصحيح"، وهو مختصر لصحيح البخاري ترجم إلى اللغة التركية، وطبعَتْه رئاسة الشؤون الدينية بتركيا. وكان أحيانا يكتب بعض الكلمات بأحرف مشفرة، لا يقرؤها سواه لما يعلم من الرقابة البوليسية الشديدة على دروسه. فما كان رجال الشرطة يغادرون باب مسجده إلا بعد نهاية الدرس وتفرق الناس. وما كانت السلطة العلمانية في تركيا تسمح للوعاظ في أن يعطوا للناس ولو ببصيص أمل ضئيل، في عودة النور إلى بلاد الخلافة. ومن ثم فقد كان مجلس الوعظ الصغير الذي ينظمه الفتى في المسجد واحة نور مباركة، في صحراء حالكة شديدة الظلام!

رؤيا جميلة!

الرؤى هي الخيط الأثيري الذي يربط الإنسان بعالم الغيب.. عندما تصفو مرآة المؤمن تشرق عليها الروح المشوقة بحب الله، فتنفتح له النوافذ على شرفات السماء فيرى..! وصاحب المشاهدات يعيش في أنس دائم مع الملائكة وأرواح الأنبياء..!

.....

قال الراوي:

في يوم من الأيام جاء أحد الجلساء مُهَروِلاً، كان يحمل بشارة من رؤيا رآها.. وكان رجلا صدوقا صالحا حقا! فلما أذن له فتح الله بالكلام

حكى أنه رأى النبي ﷺ بداخل مسجدهم ذاك، وأمُّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها واقفة بالباب، فكانت تسأله ﷺ: يا رسول الله! إن هؤلاء الشباب يسألونك هل أنت راض عنهم؟ مشيرة إلى مجلس فتح الله وأصحابه! فقال لها ﷺ: "نعم! أنا راض عنهم جميعا، وخاصة عن واحد منهم! وخاصة عن واحد منهم!".. كان الشاب يقص رؤياه والجلساء تختنق أنفاسهم بالبكاء، شوقا وفرحاً! وعَدَمُ تصريح الرسول ﷺ -في الرؤيا- باسم ذلك الشخص المخصوص بزيادة الرضى، جعل كل واحد من الأصدقاء يتفكر، ويرجو عساه يكون هو المقصود! مما زاد في عشقهم لمجلسهم، وازدياد شوقهم إلى مواعيده، ونشاطهم للتدارس والمذاكرة.

ولم يزل الفتية -خلال أيام وأيام- كلما ذكر أحدهم تلك الرؤيا تخشع لها قلوبهم، فيتذاكرونها وهم يبكون! فصاروا أنشط في دعوة الشباب.. وما هي إلا أيام أخرى حتى صار عدد الجلساء ثلاثين شابا! فضاقت بهم غرفة المسجد، فخرجوا إلى مصلاه، وعقدوا حلقتهم وسطه، مما أثار حفيظة الشرطة السرية، فخاطبوا فتح الله بأنهم سوف يهاجمون المسجد ويعتقلون الشباب، لكنه رد عليهم بقوة: "إنكم إذن إن فعلتم فسأفضحكم من على كرسي الوعظ، وأكشف مؤامرتكم للناس!".. فما كان منهم إلا أن انصرفوا راشدين!

في يوم عيد الفطر من تلك السنة كان فتح الله قد اخترع طريقة ذكية لتجديد الإيمان في الناس، ولبعث الأمل في قلوبهم اليائسة. فقد طبع بطاقة تهنئة بمناسبة العيد، جعل لها وجهين، الوجه الأول كتب عليه كلمة التهنئة، والوجه الثاني كتب عليه ترجمة بسيطة لحديث النبي ﷺ ونصحه

لخبَّاب بن الأرتِّ ﷺ بعدم الاستعجال، وتبشيره بانتصار الإسلام![1]

صاحب المطبعة أرسل -بمقتضى قانون الطباعة يومئذ- نسخة من هذه البطاقة إلى المدَّعي العام بالمحكمة. فحدثت على التو ضجة كبرى في مركز الشرطة، وفي إدارة العدل بالمدينة!.. كان الوقت ليلاً.. وكان الثلج يتساقط بهدوء.. وفتح الله ساعتها في غرفته.. فَجْأَةً سمع ضجيجاً من الخارج، فنظر من النافذة، فإذا برئيس الشرطة "رسول بك"، ومعه رجال من الأمن. وعلى التو أدرك الإمام بأنهم سَيُغِيرُونَ على المنزل، فألقى بعشرات الكتب الموجودة عنده خلف أدراج المكتبة الخشبية!.. فما كاد يفرغ من ذلك حتى طرقوا عليه الباب بقوة. وما أن فتح لهم حتى اقتحموا الغرفة عليه جميعا... بحثوا في المنزل عن شيء، وفتشوا كل شيء، فما وجدوا محذوراً، ولا عثروا على دليل إدانة. ثم قالوا: "سنقوم بتفتيش الغرفة المجاورة" فأجابهم الفتى على الفور: "تلك غرفة فضيلة المفتي، ولا علاقة لي بها!" فما أصروا بعد ذلك على تفتيشها، ثم أخذوه معهم إلى مركز الشرطة!

كان فتح الله على علاقة طيبة برئيس الشرطة السيد "رسول بك"، وكان قد سبق له إنقاذه من الاعتقال منذ أيام أَدرْنَه الأولى.. لكن مدير الشرطة -وهو رئيسه الأعلى- عندما أمر بإحضاره إلى المركز هذه المرة، فإن "رسول بَك" قد تولَّى هذه المهمة بنفسه، لأنه يعلم أن مدير الشرطة شاب مغرور متكبر، فج السلوك، غليظ القلب. في الوهلة الأولى ظن الإمام أن

(١) عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ ﷺ قَالَ: "شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلاَ تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ ﷺ: "قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ! وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ؛ فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ! وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ! وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ!" رواه البخاري.

سبب القبض عليه إنما هو بطاقة التهنئة فقط.. ولكن سرعان ما أدرك أن الأمر مختلف، ولم تكن البطاقة إلا السبب الظاهر.. أما السبب الحقيقي فهو أن بعض مسؤولي مؤسسة "تعليم القرآن" قد وشوا به إلى مدير الشرطة الأعلى بسبب ما يقوم به من تربية للطلاب، وإعدادٍ دعوي لهم، لما كانوا يجدونه من منافسته لهم على استقطاب الشباب، ونجاحه الباهر في ذلك. وبعد سؤال وجواب، قال له مدير الشرطة: "فتح الله! إنني أحذّرك للمرة الأولى والأخيرة..! إنني أمنعك منذ اليوم فصاعداً من أن تهتم بشيء من أمور الطلبة! فإن تبلغني عنك مخالفة في هذا فسآمر بالقبض عليك، ولأنكلن بك تنكيلاً لا يخطر على قلب بشر!" لكن فتح الله ما كان بالعاجز ولا الجبان، فقد ردّ قبلُ على من هم أقوى منه في ضباط الجيش، ولذلك قال على الفور بقوة: "نعم! الذي يملك القوة في هذه الدنيا قد تكون أنت، وربما تستطيع أن تفعل بي ما تشاء، ولكن اِعْلَمْ بأَنَّكَ ستموت، وستدفن تحت التراب..! وهناك سأتحاسب معك!.."

وليس ينسى الفتى موقف السيد المفتي الأستاذ "سعاد يلدرم" تجاه مدير الشرطة هذا.. ذلك أنه أراد استحضار المفتي إلى مركز الشرطة، فاتصل به آمراً إياه بلهجة سلطوية خشنة: "أيها المفتي! إننا نريدك.. ونحن في انتظار قدومك إلى هنا!" لكن الأستاذ "سعاد يلدرم" أجابه بقوة: "أنا الآن في مكتبي فإن كانت لك حاجة فلا مانع من زيارتي بمقر عملي!".. وضمد المديرُ رصاصتَها كبده وسكت! وازداد السيد المفتى محبةً وعظمةً في قلب صديقه فتح الله! كان يود لو أذن له بتقبيل رأسه أو جبينه شكراً له على هذا الموقف الرجولي. وإغاظته لهذا المدير المغرور..! فقد كان متعوداً على استدعاء مسؤولي الشؤون الدينية -بمن فيهم فضيلة المفتي-

وإحضارهم بشكل مهين إلى مكتبه، متى شاء وكما شاء! فقطع عليه الأستاذ سعاد يلدرم هذه العادة بقوة، وأوقفه عند حده!

كان في مركز الشرطة ضابطٌ سِكِير، لا يكاد يصحو من الخمر بليل أو نهار.. فكان هو الذي قام باستنطاق فتح الله، وكان يصف بطاقة التهنئة التي طبعها بأنها خيانة للوطن. وكان من بين ما ألح على سؤاله عنه: ما سبب معانقة أصدقائه في ختام ليلة القدر بعضهم لبعض وهم يبكون؟ وما سبب هذه المحبة غير العادية فيما بينهم؟ ثم ما سبب استغراق الشباب في البكاء في صلاة التهجد طيلة ليلة القدر؟

بعد فترة بدأ بعض القضاة والمدعي العام يترددون على مسجد "دار الحديث"، حيث يقوم الأستاذ فتح الله بوظيفة الإمامة وإلقاء الدروس لمراقبة خطابه الديني بأنفسهم. كان اسم المدعي العام "سَلْجُوقْ"، أصله من محافظة "أَرذِنْجَان"، شرقي الأناضول، قريبا من محافظة "أرضروم" موطن الأستاذ فتح الله. بعد صلاة الجمعة أُخْبِرَ الإمام بأن المدعي العام "سلجوق" ينتظره خارج المسجد. لكن فتح الله توجس منه شرّاً فلم يخرج إليه..! ولكن المدعي العام بعد طول انتظار أرسل إليه حارساً يخبره بأنه يستدعيه إلى إدارة المحكمة. فما كان منه بعد ذلك إلا أن ذهب إليه.. فجعل المدعي العام يستنطقه حول بطاقة العيد مرة أخرى، وعن غيرها من التصريحات والتلميحات. ثم قال له في الأخير: "إنك يا فتح الله عدوٌّ رهيبٌ للسلطة. نعم إنك لا تلفظ بأسماء رجال الحكم صراحةً في دروسك، لكنك تصف خصالهم بما يجعلهم مكشوفين أمام الجمهور بشكل واضح. وإنك تقوم بمدح الماضي على الدوام، وتنتقد الحاضر بقوة. أسلوبك الخطابي الارتجالي المتين مُؤَثّرٌ جدّاً! ومخيفٌ جِدّاً! ولكن

كُنْ عاقلا وإنه بمقدورك مدح بعض الشخصيات من فوق المنبر، ومن على كرسي الوعظ!".. وجعل يراود الإمام بأساليب متعددة على ضمه إلى فريق السلطة العلمانية، وعلى محاولة تدجينه بكل وسائل الترغيب والترهيب.. ولكن دون جدوى..!

بإصرارٍ من الواعظ "حسين أفَنْدي"، بدأ الأستاذ فتح الله يعظ السيدات يوم الثلثاء بَدَلاً منه. وكان النسوة يتفرسن في وجهه الجميل طويلاً، وكان ذلك يزعجه، فما كان منه مرة إلا أن قال لهن: "لو نظرتن إلى موضع صلاتكن لكان خيراً من النظر إليَّ وأنا ألقي الدرس!" فطارت هذه العبارة إلى ملفات الاتهام عند المدعي العام، فكانت مما سأله عنه، وعلم ساعتها أن بعض النساء كن مجندات في استخبارات الأمن بشكل فعال!

في يوم العيد، وعظ فتح الله بـ"المسجد العتيق" بطلب من المفتي "سعاد يلدِرم". فحرص الرجل على أن لا يثير أمراً يزعج السلطة، إلا كلمات قليلة عن كثرة استهلاك الخمور، وانتقاد الفساد الخلقي العام.. وذكر كيف بدأ الشبان والشابات يتعانقون عند نوافذ المساجد، وكيف بدأت الخمر تستهلك تحت ظلال جدرانها، وكيف استغاث رجال العدل ورجال التربية والتعليم من أجل إنقاذ الوضع، فكان ذلك كله مما استنطق من أجله في المحاكم، وجعلوا من كل جملة نطق بها سؤالا شديداً واتهاما جديداً!

ومن العجائب التي اكتشفها الإمام الداعية أثناء المحاكمة حضور نحو خمسة عشر رجلاً من العامة ليشهدوا متطوعين ضده، وكان هناك رجل يشهد لصالحه في المحكمة، لكنه اكتشف بَعْدُ أنه كان من رجال الاستخبارات الذين كتبوا التقارير ضده!

لكنّ أغرب الشهادات ضده هي شهادة مدير ثانوية الفنون!.. فقد صرح

للمحكمة بأنه كان يقول: "يجب أن نهاجم المكان الفلاني، والمكان الفلاني، وأن نفعل بفلان كذا وكذا..!" فلما أنهى بُهتانه طلب الأستاذُ فتح الله الكلمة من رئيس المحكمة، فقال: "إنني أسأل هذا الرجل أمامكم: ألم أقل بوجوب الحفاظ على سلامة المجتمع وأمنه؟ ألم أقل بأهمية الاستقرار وحفظ النظام العام ونحو ذلك مما سمعه جميع الناس؟... لماذا تركتَ هذه الأشياء في شهادتك؟.." ومن بلادة المدير أنه أجاب: "لقد كان مكبر الصوت مضطربا، فلذلك لم أسمع كل شيء!" فقال له فتح الله على التو: "عجيب أمرك يا رجل! مكبر الصوت لا يستقيم إلا فيما تريد أن تسمعه أنت! فماذا يحدث لهذا المكبر؟ يعمل أثناء الأقوال التي تُستخدم ضدي، ويتعطل أثناء الأقوال التي تستخدم لصالحي!" ثم التفت فتح الله إلى هيئة المحكمة قائلاً: "أيها السادة المحترمون! إن الشخص الذي تتناقض أقواله بهذه الصورة لا يصح أن تؤخذ أقواله بعين الاعتبار!.." فاسود وجه المدير الكذاب، ولاذ بالصمت بشكل مُخْزٍ تماماً!

وأغرب من هذه الشهادة الباطلة شهادة محام متخصص، خبير بالقانون. كان محاميا لخزينة الدولة.. والغريب أنه كان كثير الصلاة في مسجد فتح الله، وقد أدى صلاة التروايح خلفه لتلك السنة عدة ليال.. بل دعاه للإفطار أكثر من مرة، وأجلسه مع خواص أصدقائه، وجلس معه إلى مائدة الشاي كثيراً قبل رمضان، مع رفقة من أهل الثقافة في أَدِرْنَه.. ولكنه عندما سأله رئيس الهيئة القضائية عن فتح الله: هل يعرفه، أجاب بالقطع: لا! ثم قال في شهادته العجيبة: "دخلت المسجد مرةً، فوجدت جوا رهيبا مثل أجواء الانقلاب العسكري! كان هذا الإمام ينتقد رجال السلطة بصورة مثيرة! وكان طرف عمامته يهتز بقوة! والجمهور يزداد هيجانا لوقع كلماته

الرهيبة!" وهنا استأذن فتح الله مرة أخرى من هيئة المحكمة، لكن الرئيس رفض إعطاءه الكلمة. فأصر فتح الله على الرد، وألح في طلب الكلمة إلحاحا حتى خضع له الرئيس. فجعل الإمام يقول وهو ينظر إلى المحامي البهَّات حيناً، وإلى هيئة القضاء حينا آخر: "أيها السادة المحترمون! إن هذا الرجل الذي يدعي عدم معرفته بي هو من أكثر الناس معرفة بي!.. لقد صلّى خلفي أغلب تراويح رمضان لهذا العام، وليس يفصلنا عن رمضان إلا أيام قلائل، فهل نَسِيَني بهذه السرعة؟ بل لقد استدعاني للإفطار في بيته مع بعض أصدقائه، ولهم أن يشهدوا بهذا. ثم هل نسي ما شربنا من شاي في المقهى الفلاني، مع فلان وفلان؟ فمَن نسي كل هذا كيف تذكر نص شهادته ضدي؟" فما كان من المحامي المتقاعد وهو يسمع كلام فتح الله إلا أن ارتبك ارتباكا شديداً، ثم قال بشدة: "نعم أعرفه!" ثم أخذ معطفه وانطلق خارج قاعة المحكمة لا يلوي على شيء!

كان هناك شخص اسمه "رِفعَتْ بَك"، كان أحد الرجال القلائل الذين شهدوا لصالح فتح الله بصدق، ودافعوا عنه بقوة. بيد أن دفاع السيد "رفعت" كان أعظم وأنبل! ولا كدفاع محام خبير! كان هذا الرجل يعيش من قبلُ حياة منحرفة عن الدين وتعاليمه، ثم أكرمه الله بتوبة نصوح، فكان من المواظبين على دروس فتح الله، وكان من أعيان المدينة، ومن كبار أشرافها! ولذلك تركتْ شهادتُه ودفاعه عن الواعظ فتح الله أثراً بالغا على هيئة المحكمة! لقد كان السيد "رفعت بك" هذا ينادم كبار الشخصيات، منهم القضاة أنفسهم والمدعون العامون! ولذلك قال لهم في المحكمة: "أيها السادة! إنكم تعرفونني جيداً! لقد كنت أشرب الخمر وأخرج إلى شوارع المدينة فأملؤها بالصراخ.. الكل كان يخاف مني! فلمّا تعرفتُ

على هذا الإمام العظيم، وشاهدت صدقه وإخلاصه في الالتزام بتعاليم الدين، أكبرتُه وتأثرت به، فجلست إلى وعظه، وودّعت ماضيّ السيء، والتحقت بالمساجد والصلوات! وهناك وجدت نفسي!" كان الجميع ينظر إلى السيد "رفعت" بإعجاب كبير.. فقد كان رجلا طويل القامة، عظيم الصوت، قوي الشخصية، مهيب الجانب!

ورغم أن سير المحاكمة كان انتصاراً لصالح فتح الله، فقد منع الرجل من الوعظ طيلة مدة المحاكمة، وكانت السلطة قد وضعت يدها على شهادة أهليته لوظيفة الوعظ والإرشاد، وجعلت تهيء ضده ملفا قضائيا مزوَّراً للحكم عليه بعشر سنوات سجنا، إلا أن الله سلمه فلم يستقم لهم شيء مما دبروا فعدلوا عن القرار إلى حين!

ثم علم الرجل أن هذه المكائد كلها كان يدبرها والي محافظة أَدِرْنَه "فريد قُبَاطْ". لقد كان هذا الوالي رجلا عنصريا عنيداً، تجري العلمانية الملحدة في شرايينه مجرى الدم. وكان يكره رؤية علماء الدين من الخطباء والوعاظ، ويمتلئ حنقا وغيظا شديداً من ممارستهم لمهامهم! ولذلك فقد أصبح وزيراً للداخلية بعد الانقلاب العسكري الذي وقع بتركيا في ثاني عشر مارس من سنة ١٩٧١م.

فهذا الرجل الحقود كان صاحب معاناة فتح الله طيلة تلك المدة. وقد علم الإمام أن شهادة أهليته للوعظ معتقلة تحت يده بمكتبه. وليس ينسى يوم استدعى هذا الوالي جميع علماء الدين وموظفي الشؤون الدينية في المدينة، فجعل يتحدث بطريقة مستفزة، جعلت الجميع يفهم أنه يقصِد فتح الله، فكان ينظر في عينيه وهو يقول: "يوجد بينكم الآن خَوَنةٌ سفَلَةٌ أدْنِيَاء..! هؤلاء يستحقون السَّحق والمحق!"

ولقد أمضى هذا الرجل التعيس أواخر عمره في مرارة، وكَثُرَ أعداؤه حتى من أعضاء حزبه ورفاق دربه، وبقي على ذلك حتى مات على أخزى ما يكون موت الأشقياء!

الهجرة إلى محافظة "كِرْكْلاَرْأَلِي"

ليس أشد على فتح الله من مصادرة حنجرته، واعتقال لسانه. وإنَّ مَنْعَهُ من إلقاء دروسه ومواعظه لهو أشد عليه من خنق أنفاسه. لقد كان قلبه معلقا بقباب المساجد العتيقة، ومناراتها العالية الرفيعة.. كلما جلس تحت فضائها الفسيح حطت بين يديه أسراب الهداهد والحمام، فجعل يقرئها تراتيل الربيع، حتى إذا عقلت الدرس جيداً، طارت برسائله محلقة نحو كل تُخُوم العالم، فلا ترجع حتى تعود إليه قابضة بمخالبها الصغيرة على أفنان زيتون، وبضع ذرات من طين، برهاناً على بلوغها أرض السلام!..

ثم أصبح الحصار المضروب على فتح الله إعصاراً شديداً، يزلزل أعشاش الطيور، ويحطم أحلامها..! وظل القناصة يترصدون نزولها إلى فناءات المساجد ليطلقوا عليها شرارة النار! كان فتح الله يرى ذلك كله فيبكي ثم يبكي!

.....

لقد صارت مدينة أَدِرْنَه بالنسبة إليه مثل كابوس رهيب يؤرقه بالليل والنهار. فهذا مدير الأمن، يُرهبه باستمرار، ويمنعه من تدريس طلبة القرآن الكريم، وهذا والي المدينة يضع يده على وثيقة أهليته للوعظ، ويمنعنه من إلقاء الدروس بالمساجد!.. وهو يضطر لمجادلة هؤلاء جميعاً، وحده

منفرداً. ومن ثم بدأ يفكر في الهجرة مرة أخرى!..

بعد أيام سافر الرجل إلى العاصمة أنقرة. وهناك التقى صُدْفَةً صديقَه الحميم، الأستاذ المفتي "يَشَارْ طُونَاكُورْ". كان موظَّفاً آنذاك في مدينة "إزمير" جنوب غربي تركيا. وإنما قَدِمَ إلى أنقرة لقضاء حاجة. فكان أن جلس الصديقان فقص عليه فتح الله أزمته، وما آل إليه وضعه في أَدِرْنَه! فقال له السيد "يَشَار" ناصحاً: "اسمع يا أخي فتح الله! إنه لا يوجد الآن من سيسمع كلامك في رئاسة الشؤون الدينة، ولا أحد يستطيع أن يتلقى شكواك في هذه الظروف العصيبة!"

لكن فتح الله كان قد بلغ به الضجر من سوء الأحوال مبلغاً كبيراً؛ ولم يعد قادراً على البقاء في وظيفته الدعوية مُكَبَّلَ اليدين والرجلين، معتقل اللسان. فدخل على مدير قسم "القضايا الشخصية"، في رئاسة الشؤون الدينية بأنقرة، وقص عليه قضيته راغبا منه المساعدة على الانتقال إلى محافظة أخرى. لكن المسؤول ألَحَّ على الإمام بأن يستمر في عمله بمدينة أَدِرْنَه. ولكن الفتى ألح من جديد على الانتقال ولو إلى محافظةٍ قريبة من "أَدِرْنَه"؛ فكان أن استجاب المسؤول تحت الإلحاح الشديد؛ فكتب له وثيقة تقضي بانقطاع عمله في أَدِرْنَه، ثم كتب له تعييناً جديداً إلى محافظة "كِرْكْلاَرْأَلِي"، وهي محافظة محاذية لأَدِرْنَه تماما في منطقة "تراقيا"، أي القسم الأروبي من تركيا، على تُخُوم دول البلقان. فأخذ فتح الله الوثيقتين وعاد بهما إلى أَدِرْنَه مسروراً.

بمجرد عودته إلى "أَدِرْنَه" أُنبئ الداعية بأن الوالي الحقود "فريد قُباط" قد تم نقله إلى مكان آخر. فكان مساعد الوالي ينوب منابه إلى حين، كان اسمه "نائل مَمِيكْ"، وكان رجلا محافظا إلى حد ما.. فعلى الأقل كان

يصلي الجمعة، وكان ذا طبيعة لينة.. نائب الوالي هذا وقَّع على الوثيقة التي جاء بها فتح الله من أنقرة، والتي تقضي قطع علاقته بأَدِرْنَه، وسلمها له على الفور، وكأنه يريد أن يتخلص من بلاء!.. وعلى الرغم من أن وَثيقة الوعظ قد سُلبت من يد الفتى، فلم يُحدث ذلك أي إشكال لدى نائب الوالي، فالمهم عنده أن يتخلص من فتح الله بأي طريق كان. ولكن من عجيب القَدَرِ أن هذا الرجل المسكين عين بعد فترة وجيزة واليا على محافظة "كِرْكْلاَرْأَلِي"، المدينة نفسها التي نقل إليها فتح الله. فوجد نفسه مضطرّاً للخضوع لِقَدَرِه، والتعامل مع هذا الداعية الغريب!

كان دخول فتح الله إلى مدينة "كِرْكْلاَرْأَلِي" في اليوم الثالث والعشرين من شهر يوليو، سنة ١٩٦٥م، وبقي فيها نحو ستة أشهر، أي إلى غاية الحادي عشر من مارس سنة ١٩٦٦م، حيث هاجر بعدها إلى مدينة "إِزْمِير" الشهيرة، جنوب غربي البلاد.

"كِرْكْلاَرْأَلِي" مدينة ليست كأي مدينة..! إنها ثغر عسكري قديم، ورباط حصين، لم يزل يحمي بصدره العظيم كل بلاد الأناضول.. جبال "كِرْكْلاَرْأَلِي" لم تزل شاخصة ببصرها نحو مدن الغرب القريبة، ودوله المجاورة، ترفع راية التحدي في وجه الضباب القادم من هناك، وتذكّر بالجهاد الذي كان..

نجيب فاضل عميد الأدب التركي يلبي دعوة فتح الله!

رغم أن المدة لم تطل بالأستاذ فتح الله في هذه المدينة الحدودية، إلا أنه مع ذلك قد غمرها نشاطا وحيوية كعادته. فإضافة إلى إمامته بالمسجد

ومواعظه المستمرة؛ فقد جمع ثلة من الشباب في مجلس خاص للتربية والمدارسة. ولم تمض إلا أيام قليلة حتى كان قد أسس نواة للخير في هذه المنطقة الحساسة. كان فتح الله ورفاقه قد اتخذوا بيت أحدهم مقرّاً دائماً للعمل الدعوي، ومجلسا مستمرّاً للتربية والتدارس.

وفي تلك الفترة استطاع فتح الله أن يحصل على موافقة الشاعر التركي الكبير نجيب فاضل ليلقي محاضرة بالمدينة. وفعلاً حضر الرجل، وكان حدثا تاريخيا بالنسبة لمجموعة الشباب، وللمدينة بأسرها. فلم يكن نجيب فاضل رحمه الله مجرد شاعر وكفى، بل كان مفكراً، وأديباً، وعَالِماً مكيناً، وداعيةً حكيماً.. بل إنه أسطورة الأدب التركي الحديث!.. فهو شاعر تركيا الأول.. وبجدارة حاز على لقب "سلطان الشعراء"، وصار "عميد الأدب التركي" بلا منازع!.. أبدع القصيدة، والقصة، والمسرحية، والرواية.. وكان صحفيا كبيراً، يُضرب لمقالاته في الأوساط السياسية ألف حساب!.. أصدر جريدة "الشرق الكبير"، فكانت مدرسة لجيل كامل من الشباب المحروم، وروضة لاستنشاق أريج الدين، في زمن مصادرة الدين!

عاش نجيب فاضل حياته متنقلا بين المدن والمحافظات، يلقي المحاضرات، ويجدد العزائم، ويحطم أوهام اليأس في الشباب.. حارب فلسفةَ الإلحاد بقوة، وواجه تيارَ التغريب بضراوة!.. فكان قلمه سيفا ألماسيا يقاتل في كل ميدان، ويجاهد في كل جبهة، وكان مداده السيال ينزف بدم الجرح العميق، الذي شج رأس الأمة الإسلامية نحو قرن من الزمان!

فأن يحل الأستاذ نجيب فاضل بـ"كِرْكُلاَرْأَلِي"، ضيفاً على فتح الله، وهو الداعية الشاب المطارد في كل مكان له أكثر من دلالة.

في تلك الليلة التفّ الشباب حول نجيب فاضل ببيت أحدهم،

واجتمعوا معه في العَشاء جميعا على مائدة واحدة.. وهنالك اكتشف نجيب فاضل عن قرب الداعيةَ الشاب فتح الله كولن؛ فكان له به اهتمام خاص، فكان يثني على أفكاره وجهاده كثيراً طيلة المجلس؛ مما أخجل الرجل. كان الأستاذ نجيب يتفرس في وجه هذا الفتى الذي شغل الناس، وأربك الطغاة بخطبه وشجاعته، حتى لقّبته الصحف بـ"حفيد محمد الفاتح!".. كان الأستاذ نجيب -وهو الشاعر الروائي- يقرأ في وجه فتح الله رواية درامية، سيكون لها أثر كبير في تغيير مجرى التاريخ!..

لم يكن اسم فتح الله يومها مغموراً، فقد أسهمت المحاكمات والصحف العلمانية واليسارية في شهرته. ولعل ذلك ما جعل الشاعر المسلم نجيب فاضل يقبل دعوته لزيارة مدينة "كِرْكْلاَرْأَلِي". وفي تلك الليلة أيقن الرجل أن فتح الله هو مجدد النور في ربوع تركيا، وأنه وارث سر آخر الفرسان! بعد مغادرته المدينة بدأ في اليوم الموالي يكتب سلسلة مقالات في جريدة: "الشرق الكبير"، حول أهمية فكر رسائل النور وضرورته للمجتمع التركي.

كانت هناك جريدة محلية صغيرة اسمها: "أَطَا يُولُو"، وكانت تنشر مقالات ضد الإمام فتح الله باستمرار.. ثم نشرت يوما مقالا ضد الأستاذ نجيب فاضل! فأرسل إليه فتح الله نسخة منها؛ فكان أن نشر الأستاذ نجيب بعدها في مجلة "الشرق الكبير" صُورَةً كاريكاتوريةً ساخرةً، هي عبارة عن مشهد كلب كبير ضخم الجثة، وإلى جانبه كلبٌ صغير جدّاً! وكتب تحت الكاريكاتور تعليقا ساخراً نصه: "نحن نواجه هذا الكبير، فمن أين ظهر هذا الصغير؟!"..

كسوف جديد

كانت ظروف تركيا في تلك المرحلة قد اشتدت ظلماتها حلكةً، واشتدت الحملة من جديد على أشعة النور في كل مكان.. وصادرت أشباح الظلام كل شيء جميل.. واختنقت حناجر الطيور بِعَبَرَاتِهَا فلم تستطع التغريد زمناً، وغص المؤذنون بشهيقهم عند كل وقت صلاة!

فمنذ انقلاب ١٩٦٠ الرهيب، وإعدام رئيس الوزراء عدنان مندريس وبعض وزرائه المخلصين، والقبضة على خناق الشعب لا تزداد إلا شدة وشراسة، حيث أسندت رئاسة الوزراء مرة أخرى عصمت إينونو..!

عصمت إينونو هو رفيق أتاتورك.. شغل في زمانه منصب رئيس أركان الحرب العامة. ثم صار هو الرئيس الثاني للجمهورية التركية بعد وفاة أتاتورك سنة ١٩٣٨م. وقد تولى في السنة نفسها رئاسة حزب الشعب الجمهوري الحاكم. ثم تولى بعد ذلك منصب رئاسة الوزراء لعدة فترات، كما كان وزيراً للخارجية في فترة أخرى.. فقد كان له دور كبير في محاولة محو الصبغة الإسلامية للأمة التركية، وكان رجلاً دكتاتورياً شرساً... جاء من قلب المؤسسة العسكرية فحكم المجتمع التركي بقبضة من حديد..!

بل إن "عصمت إينونو" قد لعن أتاتورك، ونعى عليه التهاون في محو جميع آثار النور، مما بقي من المساجد والمدارس العتيقة هنا أو هناك، إلى درجة أنه غيّر الأوراق النقدية، وحذف منها صورة رفيقه أتاتورك، وطبع عليها صورته الشخصية!

عندما أسند له الجيشُ رئاسةَ الوزراء مرة أخرى -بعد انقلاب ١٩٦٠م- تحولت البلاد إلى جحيم رهيب! لقد احترقت جميع الأشجار، وتحولت

أعشاش الطيور إلى رماد.. ولم يبق مكان للتغريد..! وزمجرت صواعق الموت بين الشوارع والدروب..! لقد كان عام ١٩٦٠م هو عام الحزن في تاريخ تركيا الحديث..! ففيه مات مجدد الدين بديع الزمان النورسي، وفيه وقع الانقلاب الدموي المشؤوم على الحكم المدني المخلص! ثم علقت المشانق والصلبان في كل مكان.. وشعر عموم الناس في تركيا بيتم حقيقي! وضجت النوارس بالبكاء على الشواطئ والخلجان!

وجاء دور فتح الله..!

بدأ الإمام الشاب يشعر بأن وقت البوح بالأسرار قد اقترب!.. وأن زمان تجهيز الفرسان قد وصلت خيوله إلى تُخُوم المدينة..! هو الآن في السادسة والعشرين من عمره، وهو يدرك أنه في هذه الآونة على موعد مع قَدَرٍ ما!..

.....

كانت شجرة الأسرار تنمو في قلب فتح الله بشكل سريع.. وكانت أغصانها تمتد عبر شراينه بعنفوان كبير.. كانت عيناه تتفتحان كل صباح بزهور الجوز.. وعمرت أغصان مواجيده كل المنطقة الأروبية من تركيا، فلم تعد حدائق "تراقيا" قادرة على استيعاب كل خمائله العالية، وانتشرت الظلال ما بين مدينتي "أَدِرْنَه" و"كِرْكْلاَرْأَلِي".. ولم يعد ثمة متسع لثماره، فجعل جذعه العظيم يهتز مرة أخرى لوجيب الرحيل؛ فيبكي ثم يبكي!

وَفَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ لَيْسَ يَبُوحُ بِهِ!..

فَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحداً!..

فَتْحُ اللهِ يحمل في قلبه ما لا طاقة له به؛ ولذلك لم يزل يبكي؛ حتى احتار الدمعُ لِمَأْتَمِهِ!

فَتْحُ اللهِ وارثُ سِرٍّ، لو وَرِثَهُ الجبل العالي؛ لانهدَّ الصخر من أعلى قمته، ولَخَرَّتْ أركانُ قواعدِه رَهَباً!

.....

قال الراوي:

بعد الانقلاب العسكري حصل الإمام فتح الله على إجازة سنوية، لمدة أربعين يوما، فاستغلها لزيارة عدد من المدن التركية، وتجديد الصلة بالعديد من إخوانه ورفاق دربه. وفي العاصمة أنقرة التقى بصديقه الحميم السيد "يَشَارْ طُونَاكُورْ"، الذي تم تعيينه كنائب لرئيس الشؤون الدينية بأنقرة. فحدّثه فتح الله عن وضعه المزري والحصار المضروب عليه. وهناك اقترح عليه السيد يَشَار أن يرحل إلى مدينة إزمير جنوب غربي البلاد. فاستعظم فتح الله ذلك، وتساءل كيف ينتقل للوعظ في مدينة كبيرة، وهو مجرد واعظ في مدينة صغيرة؟ لكن السيد يشار ألح على الأمر وأمره بكتابة طلب في الموضوع، فلما أبى أمر به بعض الموظفين فكتبه باسم فتح الله كولن ثم أرغمه السيد يشار على توقيعه، ثم أرسله إلى مكتب السيد رئيس الشؤون الدينية السيد "محمد حمدي يَازِير" للمصادقة عليه.

كان السيد يشار من قبلُ مديراً لمدرسة دينية في إزمير، وكان يشتغل بالوعظ والخطابة في مساجدها. وكان رجلا محبوباً لصدقه وجديته. فعندما جاء تعيينه نائبا لرئيس الشؤون الدينية بأنقرة، تأسف محبّوه هناك على فراقه أسفا بليغا. فكان أن وعدهم بإرسال مدير شاب وواعظ قوي

أمين ليحل محله عندهم. ولم يكن ذلك الشاب في ذهنه سوى صديقه محمد فتح الله كولن، وكذلك كان.

عندما عاد فتح الله إلى مدينة "كِرْكْلاَرْأَلِي" لجمع متاعه القليل، ووداع إخوانه استعداداً للرحيل إلى إزمير أصيب جميع رفاقه بالذهول عند سماع الخبر، وبكوا كثيراً على فراق فتح الله. وفي صباح اليوم الحادي عشر من مارس ١٩٦٦م، ودّعوه بالتكبير والتهليل، ورافقوه إلى مدينة أَدِرْنَه القريبة حيث ودّع إخوانه الآخرين هناك. ثم ركب القطار في اتجاه مدينة إزمير، هناك في أقصى جنوب غربي البلاد.

وجاء فتح الله على قَدَرٍ مرة أخرى.. فشكل توارد الموافقات العجيبة في حياته إشارة إلى بداية الزمان الجديد..! فقد وُلِدَ فتح الله سنة ١٩٣٨م، وهي السنة نفسها التي توفي فيها كمال أتاتورك.. ثم كان موعد بوحه بسره المكنون في مدينة إزمير، وهي المدينة ذاتها التي وُلِدَ فيها عصمت إينونو..! ولذلك لم تزل هي قاعدة الشيطان الكبرى، وحصنه المنيع حتى جاء فتح الله..!

وحياة فتح الله كلها موافقات وإشارات.. ولولا أن ترجمان الأشجان لم يأذن لنا في الإعلان؛ لكشفنا في هذا الفصل عن منشور الكرامات، وعن خريطة فتوح البلدان، وخلافة الزمان الجديد!.. فصبراً على مكابدة الطريق يا قلبي..! فإن لك فيما بقي من الورقات ما يَسُرُّكَ من مكانز الأسرار..!